قصة آية

13



الصدقة الجميلة

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدي مصطفى

طبع ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



الصَّدقة الجميلة

قَالَ (تعالى) :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦٢]

كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكٍ اخْتِبارًا حَقيقيًّا لِصدْقِ إِيمانِ الصَّحَابَةِ ، وخَاصَّةً فى تَحَمُّلِ الأَذَى والشَّدائد ، وفى مَجَالِ النَّفَقَةِ فى سَبِيلِ اللَّه .

فَقَدْ بَلَغَ الرَّسُولَ ﷺ أَنَّ الرُّوم قَدْ جَمَعت الْجُمُوعَ وانْضَمَّتْ إِليْهَا نصارى الْعَرب ، وعَقَدُوا الْعَزْمَ على غَزْوِ المسلمين ومُحَارَبتهم فى دِيارِهم .

وفكَّر الرَّسُولُ الْقائدُ فى الرَّدِّ المناسب ؛ هل ينْتظرُ حتَّى يُفاجأ بجيْش قوامُه أرْبعُون ألْف جنْدى ، مُجهَّزين بأحْدث الأسْلحة ، أوْ يُفاجئهم هُو بجيْشه فيمْنع تقدُّمهُم وزحْفهُم نحو المدينة .

وبعْد مُشاورات طويلة ، عقد الرَّسُولُ ﷺ الْعزْم على غزْو الرُّوم ومُفاجأتهمْ فى ديارهمْ .

وكانت الْغزْوةُ هذه المرَّة أمْرًا صعْبًا للْغاية ، فقدْ بلغ الْحرُّ أقْصاهُ ، وكان النَّاسُ فى عُسْرة من الْعيْش ، ولذلك أعْلن ﷺ للْجميع عن الْجهة الَّتى سيتَّجهُون إليْها على غيْر عادته فى الْغزوات الأُخْرى ، فقدْ كان ﷺ يكْتفى

بِإعلامِ صحابتِهِ بالْغزوةِ ولا يُحدِّدُ لهُمُ المكانَ الَّذِى سيتجهُونَ إِلَيْه .

كانَتِ الْغزوةُ فى هذِه الظُّروفِ ثقِيلةً على النَّفْسِ ، فيها أَقْسى مظاهِرِ الابْتلاءِ والامْتِحان ، ولِذلكَ انكشفَ أمرُ النِّفاقِ والمنافقِينَ ، كما ثَبتَ إِيمانُ المؤْمنِينَ وإِخلاصُهُمْ بِما لا يدَعُ مجالاً لِلشَّكِّ .

أَخذَ المنافقُونَ يقولُونَ لِبعْضِهِمْ :

ـ لا تنْفِرُوا فى الْحرِّ .

وجاءَ آخرُ وقالَ لِلرَّسُولِ ﷺ :

ـ ائْذنْ لِى بِعدمِ الاشْتِراكِ فى المعْركةِ ولا تَفْتِنِّى ، فواللَّهِ لقدْ عرفَ قوْمِى أنَّه ما مِنْ رجُلٍ بِأشدَّ

إعجابًا بالنِّساءِ منّى ، وإنّى أخشى إنْ رأيتُ نساءَ الرُّومِ أن لا أصبرَ .

فأعرضَ عنهُ رسُولُ اللَّه ﷺ وأذنَ لهُ فيما أرادَ .

وعسكرَ عبدُ اللَّهِ بنُ أُبىّ بنِ سلُولٍ فى ضاحيةِ بالمدينةِ مع حُلفائه وأتباعه من المنافقين ، حتَّى إذَا ما رأى الرَّسُولَ ﷺ يسيرُ هُوَ وأصحابُهُ انْصَرفَ إلى حَالِ سبيله وقالَ لأتْباعه :

ـ هيَّا ننْصرِفْ إلى بيُوتنا ، فإنَّ محمَّدًا يعرِّضُ أصحابَهُ للْهلاكِ ، وإنَّهُ لا طاقةَ لهُ بالرُّومِ وجيْشِ الرُّومِ .

ونَزَلَ فى هؤُلاء المنافقين آياتٌ قُرآنيَّةٌ تفْضحُ نفاقهمْ وتخاذُلَهُمْ وانْصرافَهُمْ عنْ رسُولِ اللَّه ﷺ .

قَالَ (تعالى) :

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾

[التوبة : ٨١]

وقَالَ (تعالى) :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

[التوبة : ٤٩ـ٥١]

وشَعَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِالْحُزْنِ ، فَقَدْ تَخَلَّى عَنْهُ هَؤُلاءِ الْمُنَافِقُونَ وبَخِلُوا بِأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ ،

وَلَمْ يَكْتَفُوا بِذَلِكَ بَلْ حَاوَلُوا تَثْبِيطَ هِمَمِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَحْرِيضَهُمْ عَلَى الْبُخْلِ وَالتَّرَاجُعِ .. لَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ .

فَقَدْ أَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَفْوَاجًا ، بَعْدَ أَنِ اسْتَشْعَرُوا الْخَطَرَ وَبَذَلُوا أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِإِخْلَاصٍ وَتَجَرُّدٍ .

فَقَدْ جَاءَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ بِكُلِّ مَالِهِ وَجَاءَ عُمَرُ بِنِصْفِ مَالِهِ وَرَاحَ الصَّحَابَةُ يَتَنَافَسُونَ فِى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى .

فَقَدْ رُوِىَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَوْلُهُ :

ـ أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ وَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِى مَالًا فَقُلْتُ : الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ ، إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا .

قَالَ عُمَرُ :

ـ فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

ـ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟

قُلْتُ :

ـ مِثْلَهُ .

وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

ـ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ :

ـ أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .

فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ذَلِكَ قَالَ فِي نَفْسِهِ :

ـ لَا أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا .

وجَاء عَبْدُ الرحْمن بن عوْف بأرْبعة آلاف درْهم صَدَقَةً وأَعْطاها للرَّسُول ﷺ وقَال :

ـ كَان عِنْدِى ثَمانيَةُ آلاف درْهم فَأَمْسكْتُ منها لنَفْسى وعيالى أَرْبعة آلاف درْهم ، وأَرْبعَةُ آلاف أَقْرضْتُها ربِّى .

فقَال له الرَّسُولُ ﷺ :

ـ بارَكَ اللَّهُ لكَ فيما أَمْسَكْت وفيما أَعْطَيْت .

أَمَّا عُثْمانُ بْنُ عفَّانَ فَقَدْ جاء بأَلْف دينار وهُو مبْلَغٌ كَبيرٌ جدًّا وأَعْطاها لرسُول اللَّه ﷺ وقَال :

ـ يا رسُول اللَّه علَىَّ جهازُ من لا جهاز لَهُ فى غَزْوَة تَبُوك .

فَجَهَّزَ عُثْمانُ بْنُ عفَّانَ الْمسْلمين بأَلْف بعير بكسائها ، وتَصَدَّقَ ببئْر كَانَ يَملكُها فى المدينَة علَى المسْلمين .

وأَخذَ الرَّسُولُ ﷺ يُدخِلُ يدهُ فى أَموالِ عُثمان ويُقلِّبُها وهُوَ سَعيدٌ ببَذْلِه وإِنفاقِه فى سَبيلِ اللَّه كُلَّ هَذه الأَمْوالِ .

ونَظَرَ الرَّسُولُ إلى عُثْمانَ فى حُبُورٍ وقالَ :

ـ ما ضَرَّ ابن عَفَّانَ ما عَمِلَ بَعدَ اليومِ ، اللَّهُمَّ لا تَنْسَ هَذَا اليومَ لِعُثمانَ .

ورَفَعَ الرَّسُولُ ﷺ يديْه إلى السَّماءِ وهُوَ يدْعُو لِعُثْمانَ بْنِ عَفَّانَ قائلاً :

ـ يا رَبَّ عُثْمانَ ، إِنِّى رَضيتُ عَنْ عُثْمانَ فَارْضَ عَنهُ .

فَمَا زَالَ الرَّسُولُ ﷺ يدْعُو لِعُثْمانَ خَاصَّةً ولِكُلِّ مَنْ تَصدَّقَ وأَنْفَقَ مالَهُ حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ .

واستجاب اللهُ تعالى لدُعاء نبيه ، وأنزل قوله تعالَى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦٢]

وأدرك المسلمون أنّ المال الذى ينفقونه فى سبيل الله لن يضيع سُدى ، ولكنه سيُضاعفُ أجرهم وثوابهم عند الله (تعالى) ، وسيكونون فى أمنٍ وأمانٍ ، لا يخافون إذ يخافُ النَّاسُ ولا يحزنون إذا حزن النَّاسُ .

ولكى يكون الإنفاقُ مقبولا عند الله (تعالى) يجبُ أنْ يكون خالصا لوجه الله ، لا يقصدُ صاحبهُ من ورائه شهرة ولا رياء ، فاللهُ (تعالى)

إنَما يقْبلُ ممَنْ كان عطاؤه للّه وأكْثرُ قصْده وتوجُّهه ابْتغاء ما عنْد اللّه .

فقدْ روى أنَّ أعْرابيًا جاء إلى عُمر بْن الْخطّاب فقال لَهُ :

يا عُمر الْخير جزيت الْجنَة ∴ اكْس بُنيّاتى وأُمّهنَه

وكُنْ لنا من الزّمان جُنَة ∴ أُقْسمُ باللّه لتفْعلنَّه

فقال عُمرُ للأعْرابىّ :

ـ إنْ لمْ أفْعلْ يكُونُ ماذا ؟

فَقَالَ الأَعْرَابِىُّ :

ـ إذًا أبا حفْص لأذْهبنَّه .

فقَال عُمرُ :

ـ إذا ذهبْت يكُونُ ماذا ؟

فَقَالَ الأَعْرابِيُّ فِى تَأَثُّر :

تَكُونُ عَنْ حَالِى لَتُسْأَلَنَّه ❖ يوم تَكُونُ الأُعْطِيَاتُ هَنَّه

ومَوْقِفُ المسْئُولِ بَيْنَهُنَّه ❖ إمَّا إِلَى نَارٍ وإِمَّا جَنَّه

فَبَكَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ حَتَّى ابْتَلَّتْ لِحْيَتُهُ ، ثُمَّ قَالَ :

- أَعْطِه قَمِيصِى هَذَا لِذَلِكَ الْيَوْمِ لا لِشِعْرِه ! واللَّه لا أَمْلِكُ غَيْرَه .

فَعُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ يَحْرِصُ عَلَى أَنْ يَكُون إِنْفَاقُهُ خَالِصًا لِوَجْهِ اللَّه وأَنْ تَكُونَ الصَّدَقَةُ نَابِعَةً مِنْ قَلْبٍ مُخْلِصٍ مُتَجَرِّدٍ لِلَّه (عَزَّ وجَلَّ) ، ولَيْسَ لِلشُّهْرَةِ أَو الرِّيَاء .

وَقَدْ قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحْمَةُ اللَّه عَلَيْهِمْ :

- مَنْ أَنْفَقَ فِى سَبِيلِ اللَّه ولَمْ يُتْبِعْهُ مَنًّا

وَلا أذَى كَقَوْلِه للسَّائِل والمُحتاج : ما أشَدَّ إلْحاحَكَ ! وخَلَّصنا اللَّهُ منْكَ ! وأمْثال هذا ، فَقَدْ تضَمَّنَ اللَّهُ لَه بالأجْرِ ، والأجْرُ الْجَنَّةُ ، ونَفَى عنْهُ الْخَوْفَ بعْدَ مَوْته لِما يَسْتَقْبِلُ ، والْحُزْنَ عَلَى ما سَلَفَ مِنْ دُنْياهُ ، لأنَّهُ يغْتَبِطُ بآخِرَتِه ؛ فَقَالَ (تعالَى) : ﴿ لَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

وكَفَى بِهَذا فَضْلاً وشَرَفًا للنَّفَقَة فى سَبيل اللَّه (تَعالَى) .

والإسلامُ هُوَ دِينُ التَّكافُلِ والتَّراحُم ، ولذَلكَ حَرَصَ عَلَى حَثِّ المسْلمينَ عَلَى النَّفَقة فى سَبيل اللَّه ، عَلَى أنْ تَكُونَ النَّفَقَةُ خَالِصَةً لِوَجْه

اللّه ، وأنْ يحـرص المتـصـدّق على عـدم إيذاء مشاعر السَّائل والْفقير .

قال النّبىُّ ﷺ :

« إذا سأل السَّائلُ فلا تقطعوا عليه مسْألته حتّى يفرُغ منْها ، ثُمّ رُدُّوا عليه بوقار ولين أو ببذْل يسير أو ردّ جميل ، فقدْ يأتيكُمْ من ليس بإنس ولاجانّ ينْظُرون صنيعكُمْ فيما خوّلكُم اللّهُ (تعالى) » .

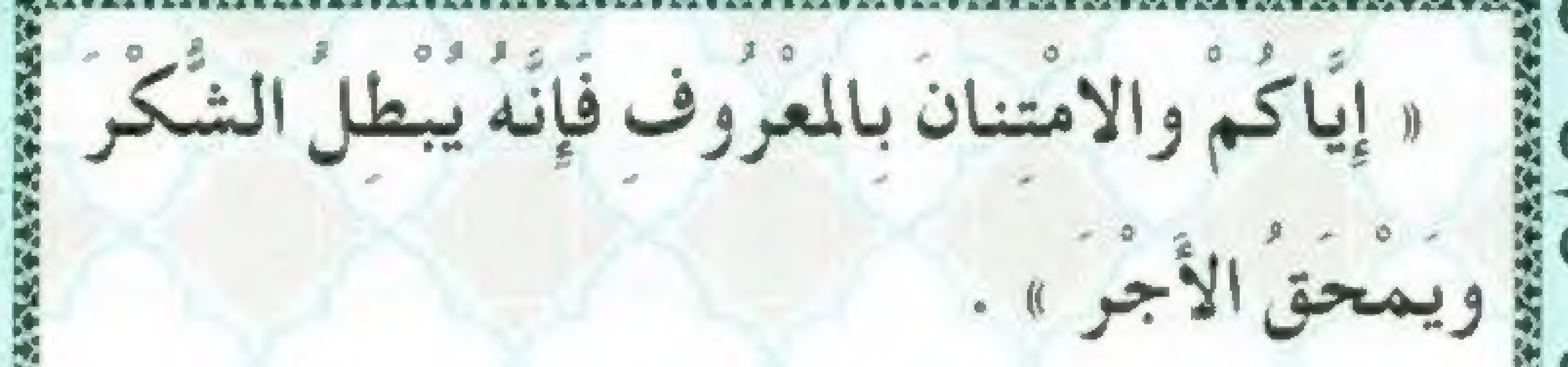
وسمع ابنُ سيرين رجلاً يقولُ لرجلٍ :

ـ فعلْتُ إليك كذا وكذا !

فقال له ابْنُ سيرين :

ـ اسْكُتْ فلا خيْر فى الْمعرُوف إذا أُحصى .

ورُوى عن النّبىِّ ﷺ أنّهُ قال :



« إِيَّاكُمْ والامْتِنانَ بِالمعْرُوفِ فَإِنَّهُ يبْطِلُ الشُّكْرَ ويَمْحَقُ الأَجْرَ » .

رقم الإيداع : ١٧٥٧٧

الترقيم الدولي : ٩٧٧-٢٦٦-٣٩٢-٧